الفصل الثالث

ظاهرة الوحي

تمثل ظاهرة الوحي اتصال خبر السماء بالأرض ، فالإقرار عقلاً والتصديق قلباً بالوحي هو أساس الاعتقاد الصحيح ، لأن الوحي وسيلة ، ومبدأ اتصال العابر بالأزلي ، وعالم الشهادة بعالم الغيب ، أو اتصال عالم الطبيعة بما وراء الطبيعة وفق المفهوم الفلسفي .

ويمثل الوحي مصدر المعرفة الحقة عن عالم الغيب ، بما يشمل الإنسان مبدأه ومنتهاه ، والكون وصانعه ، في حين تشكل المدركات الظاهرة من عقل وحواس مصدر المعرفة عن عالم الشهادة .

والأمر الجوهري الذي لا غنى عنه في هذا البحث أن الإيمان بعالم الغيب ليس بالحيّز البعيد عن مستلزمات القدرة العقلية ، فضلاً عن أن يوصف الوحي بنقيض العقل البشري ، والنأي عن قوانينه الفطرية .

إن في وسع العقل بوصفه أداة إدراك لموجودات عالم الشهود ، أن يستدل على وجود عالم الغيب بدلالة عالم الشهود ، وتلك دعوة قرآنية رددها القرآن الكريم من خلال الحضّ على النظر إلى البراهين الساطعة في الأنفس والآفاق ، أي في الكون الصغير والكون الكبير قال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويأتي على رأس الإيمان بالغيب الإيمان بالله عز وجل خالقاً موجداً ممداً ، وكل ما دونه مخلوق ، ولا يكون العقل إذ يسلم بوجود صانع

للكون قد سلم بباطل أو عقيدة مستحيلة ، إذ المتعارف عليه في النظر الموضوعي السليم أن عدم العلم بوجود الشيء لا يعني قطعاً العلم بعدم وجوده ، فكثيراً ما كانت ظواهر كونية خافية ثم اكتشفت مع التقدم وتبينت ماهيتها ، ومع هذا فالذي لا يستطاع تفسيره من ظواهر الكون كثير ، فلا يقال لم تكن الميكروبات موجودة لعدم اكتشافها سابقاً ، بل لا يقال إن الالكترون غير موجود ، لأننا لا نراه ، بل نرى أثره .

وعندما يعجز العقل من خلال دائرته الإدراكية عن معرفة ما يليها ، ولا يتجاوز هذه الدائرة يأتي الخبر الصادق الذي يتجلى في الوحي ليفسر ويحكم ، ثم يدخل هذا التفسير ضمن المحاكمة العقلية ويغدو من المسلمات ، فالوحي بعد عجز العقل يعرف بطبيعة الصفات الإلهية إذا كان العقل يكتفي بمعرفة وجود خالق ، ويرسم الوحي للإنسان طريقه الأمثل الذي يحدد له سعادة الدارين الأولى والآخرة .

لم تعد نظرة الماديين كافية ، بل انتفى منها الإقناع ، وعفى عليها الزمان ، ليكون للجانب الروحي أثره وفاعليته ، وما جدّ من مكتشفات وتقنيات اليوم أصبح يقرّب مفهوم الوحي ، فالاتصال بالصورة والصوت مثلاً من مسافات هائلة ، أصبح يقرب الاقتناع بنزول الوحي ، فضلاً عن اكتشاف العلم التجريبي لوجود عوالم روحية ، وأن مسألة ارتباط العلم بالإلحاد كانت هوى فلسفياً وميولاً مريضة عند بعضهم ، ما دامت المواد التي تؤدي إلى الكفر هي المواد نفسها التي تؤدي إلى الإيمان .

لذلك لم يعد من اللازم حشد البراهين العلمية التي تعضد ظاهرة الوحي ، فعصر الإلحاد ولّى ، وكثير من دعاته أذعنوا للإيمان بعد كشف غمة الرقابة المؤدلجة بالكفر ، فآمن بالله أساطين الكفر ، فلا حاجة لحجج ودلائل .

وتأتي أهمية مبحث الوحي من كونه علة المباحث جميعاً ، إذ يبين ماهية القرآن ومصداقيته ، ويضع الأسس المتينة لمسائل الإيمان ، فلا يخاطب الله عز وجل البشر مباشرة ، فكان لا بد من رسول يأنسون به حتى يتم التفاعل مع الدعوة ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

فيغدو هذا الرسول الذي يحمل الوحي قدوة في المسيرة الفاضلة ، وهذا عدل إلهي يترفع عن الفكر الوثني الذي تُسرق فيه المعارف الإلهية سرقة ، كما سرقها بروميثيوس من كبير الآلهة في الأساطير اليونانية .

إن أثر الوحي يتجلى في مساعدة العقل على التوجه الصحيح ليعرف سائر الأنوار ، بعد اكتشافه نقطة النور الأولى ، فلولا الوحي والرسل لتخبط العقل ، وأعطى لنفسه تصورات باطلة عن الإله ، وقد يؤله الموجودات وينحرف عن خالقها ، وقد يتصور أن الموجودات مخلوقة دفعة واحدة استراح بعدها الخالق ، كما في الفلسفات المريضة التي لاكها كثيرون ورددها للأسف من أعلامنا القدامى كثيرون .

ثم جاءت الرسالة المحمدية إنقاذاً للبشرية كافةً ، فهي رسالة لكل زمان ومكان ، إذ قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وجاء في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا رحمة مهداة »[1] .

أ ـ الدلالة اللغوية :

ماتطبِق عليه المعاجم هو أن أصل الوحي الإشارة السريعة والخفاء ، فالوحي بحسب معناه اللغوي الأصلي يتجلى دلالات متنوعة ، لكنها لا تتناقض فيما بينها :

---

(١) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، مرسلاً ، وأخرجه الحاكم وأقره الذهبي .

١ـ **الإلهام الرحماني الفطري** : ويكون للإنسان المتصف ببقاء الفطرة وطهارة الروح ، فالوحي إلى أم موسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] ، والآية : و﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه : ٣٨] .

٢ـ **الإلهام الغريزي** : ويكون للحيوان ، كما في الآية : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] وهذا يسمى بالتسخير .

٣ـ **الإشارة السريعة** : وتكون على سبيل الرمز والإيماء والحركة بالجوارح ، ومنه ما جاء عن زكريا عليه السلام : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : ١١] . وواضح من خلال هذه الأمثلة وجود (أن) التفسيرية ، مما يعني أن الوحي يوازي الإشارة ، وقيل في الآية الأخيرة : إنه أشار أو كتب .

٤ـ **وسوسة الشياطين** : وذلك لتزيين الشر في نفس الإنسان والمكاتفة فيما بينهم ، كما في الآية : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، والآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

٥ـ بوساطة اللوح والقلم : وذلك ما يوحيه الله إلى الملائكة ، كما في الآية : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

٦ـ **التسخير** : وذلك في مخاطبة الجمادات ، فقال عن الأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ٥] ، أي أمرها ، وعن السماء إن لم يُقصد أهلها من الملائكة كما في الآية : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت : ١٢] .

٧ـ **الكتابة** : يقال في اللغة عن الكتاب والمكتوب : وحي ، فأوحى إليه وحياً ، أي أرسل رسالة .

وقال الفيروزأبادي : « الوحي ، الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته إلى غيرك : والصوت يكون من الناس وغيرهم . . ، وأوحى إليه بعثه وألهمه ، ونفسه وقع منها خوف ، وتوحى أسرع ، وشيء وحي عجلٌ مسرع ، واستوحاه حركه ودعاه ليرسله ، واستفهمه ، ووحاه توحية عجله »[١] .

فاللفظ عربي ومن التعسف البالغ رد الكلمة إلى أصل غير عربي كالآرامية .

ويلحظ في دلالة الوحي معنى الإلهام حيث الخفاء ، ودلالة السرعة إذ يتجلى هذا في سرعة وحي الآيات القرآنية بالنسبة لزمن قراءتها ، هذه السرعة قائمة في الإرسال والتلقي على حد سواء ، وهناك دلالة الانتقال من كائن إلى آخر .

ب ـ الدلالة الشرعية :

الوحي في الشرع هو الكلمة الإلهية التي يلقيها الخالق عز وجل إلى أنبيائه ، فهو غير مقتصر على الأنبياء[٢] ، وقيل في تعريفه : إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي مقول أو مفهوم ، بكتاب أو بغير كتاب ، وهو كما عرفه الشيخ محمد عبده : « عرفان ـ أي معرفة يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفرّق بينه وبين الإلهام ،

---

(١) القاموس المحيط ، الفيروزأبادي : ٤/ ٥٧٩ .

(٢) عمدة القارئ للعيني : ١/ ١٤ ، وتحفة الأحوذي : ٤/ ٣٠١ .

بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس ، فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور »[1] .

فالوحي معرفة خاصة متصفة بخصوصية القول الإلهي أو الأمر الإلهي ، وفق الطرق التي حددها القرآن الكريم في قوله عز وجل : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] .

كذلك وردت الدلالة الشرعية لكلمة الوحي في الآية الكريمة : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] ، فدلت على الكلام الموحى ، فالوحي يطلق على (الموحى) أي الاسم المفعول وقال عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، أي نعلمه بالوحدانية ووجوب الطاعة ، كما أطلقت كلمة الوحي على وسيلة الاتصال ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ [الأنبياء : ٤٥] .

ويمكن أن نخلص إلى أنواع شتى من الوحي الإلهي ، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه بلا وساطة جبريل ، كما في الآية : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] ، والآية : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] ، وهذه المكالمة نال شرفها سيد البشرية عليه الصلاة والسلام في المعراج .

ومنه ما يكون إخباراً لا إلهاماً كما يرى الشيخ الزرقاني ، إذ نخالفه هنا ، فثمة إخبار يقذفه الله عز وجل في قلب مصطفاه نبياً كان أو ولياً على

---

(١) رسالة التوحيد ، الشيخ محمد عبده ، ص/ ٢٥ ، وراجع الوحي المحمدي ، الشيخ محمد رشيد رضا ، ص/ ٣٤ وراجع بدع التفاسير ، الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري ، ص/ ٩٥ .

وجه من العلم الضروري ، فلا يستطيع له دفعاً ، ولا يجد فيه شكاً .

ومنه ما يكون مناماً صادقاً ، ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وهذا النوع هو وحي القرآن ، ومن الطبيعي أن يكون الوحي المتجه إلى الناس متصفاً بالصوت .

وقد قال عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِّ﴾ [الأنبياء : ٤٥] ، مما يعني أن مصدر كل الإنذارات هو الوحي ، سواء نسبت إلى القرآن أو إلى النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث النبوي ، وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] .

فمفهوم الآية أن يأخذ البيان حكم المبين ، والمبين والبيان محصوران بالوحي ، وقد أفادت الآية الكريمة : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ـ ٤] أن كلمة النطق صيغة لغوية عامة ، شاملة للقرآن الكريم والسنة الشريفة ، فهي إذن غير مقتصرة على أحدهما ، وجميع ما نطق به النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام من التشريع هو من عند الله .

فالإعلام السريع والخفي معلمان واضحان للوحي ، والسرعة والخفاء خصيصتان للتقنية الحديثة ، وتظهران جلياً كلما تقدمت المخترعات الاتصالية من هاتف وتلكس وتلفاز . . وهو أكثر تقدماً من سائر العلوم .

فالوحي إذن دعوة إلهية إلى إعمال العقل طلباً للتطور ، وحيثيات الوحي الغيبية لا تدعو إلى تعطيل العقل ، وهذا ما شهده العالم بعد نزول القرآن خاصة ، بعد الوحي السابق ، إذ تطورت الصناعات وكثرت الاكتشافات بعد جمود غالب ملحوظ .

ونتساءل الآن : لماذا لم يكن القرآن الكريم وحياً مباشراً في اليقظة أو المنام ، أي من غير ملك ؟ إن الحكمة الإلهية تتجلى في إقناع الكفرة

بوجود وسيلة (الملك) تؤكد هذه الوسيلة مصدرَ الكتاب وأوامره وزواجره.

وتتجلى الحكمة الإلهية أيضاً في ترسيخ سمة التعليم والتعلم في القرآن ، إذ بدأ التعليم والتعلم بين الملك والنبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا مفهوم جليل الشأن ، كما تظهر قيمة التلاوة التي تعني انشغالاً تاماً عن الدنيا ، بخلاف المفهوم لمعاني القرآن ، إذ يتزامن هذا مع غيره .

فالتلاوة انقطاع زائد للعبادة يفوق التذكر ، كما لا تظهر مزية القراءة وما تغدق به من جماليات صوتية ، ولا يتجلى الحرص على الحفظ والركون إلى معلم ، إلا مع هذه الوسيلة (الملك) ، وقد حفلت الأمة بطبقات وحلقات لا تحصى للتلاوة .

إن هذا الملك هو أمين الوحي جبريل عليه السلام ، ليس مقصوراً على الرسالة المحمدية ، فقد نزل على الأنبياء السابقين ، هذا بدلالة الآية الكريمة : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩٧] .

ونتساءل أيضاً : هل نزل جبريل عليه السلام على نبينا ﷺ بغير القرآن ؟ فيمكن أن نقول نزل بالسنة غيره من الملائكة ، أو اقتصر عليه الأمر وهو الأرجح ؛ لأن القرآن والسنة وحي ، ولم يصرح النص بهذا كثيراً .

فمن دلائل السنة المصرحة حديث عمر رضي الله عنه (٢٣ هـ) عن الإسلام : « بينا نحن جلوس ، إذ طلع علينا رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب »[1] ، والحديث الآخر الذي نقلته عائشة رضي الله

---

(١) مسلم ، الإيمان ، والترمذي ، الإيمان ، ح (٧٣٨) ، وأبو داود ، السنة ، ح (٤٦٩٥) ، والنسائي ، الإيمان : ٨/ ٩٧ . والوافي في شرح الأربعين النووية ، ص/ ١٥ .

عنها عن النبي ﷺ : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يرثه »[1] .

وثمة قاصمة كان قد ذكرها الدكتور نصر حامد أبو زيد في تأويل جانح عن حقيقة الدين والتاريخ ، لا بأس أن نختم به ونفنده قبل الكلام على كيفيات الوحي ، قال : « لقد كان ارتباط ظاهرتي « الشعر والكهانة » بالجن في العقل العربي ، وما ارتبط بهما من اعتقاد العربي بإمكانية الاتصال بين البشر والجن ، هو الأساس الثقافي لظاهرة الوحي الديني ذاتها ، ولو تصورنا خلوّ الثقافة العربية قبل الإسلام من هذه التصورات لكان استيعاب ظاهرة الوحي أمراً مستحيلاً من الوجهة الثقافية ، فكيف يمكن للعربي أن يتقبل فكرة نزول ملك من السماء على بشر مثله ، ما لم يكن لهذا التصور جذور في تكوينه العقلي والفكري ، وهذا محله يؤكد أن ظاهرة الوحي القرآن لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع ، أو تمثل وثباً عليه ، وتجاوزاً لقوانينه ، بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواصفاتها وتصوراتها ، إن العربي الذي يدرك أن الجني يخاطب الشاعر ويلهمه الشعر ، ويدرك أن العرّاف أو الكاهن يستمدان نبوءاتهما من الجن ، لا يستحيل عليه أن يصدق بملك ينزل بكلام على بشر ، لذلك لا نجد من العرب المعاصرين لنزول القرآن اعتراضاً على ظاهرة الوحي ذاتها ، وإنما نصبّ الاعتراض ، إما على مضمون كلام الوحي ، أو على شخص الموحى إليه ، ولذلك أيضاً يمكن أن نفهم حرص أهل مكة على رد النص الجديد القرآن إلى آفاق النصوص المألوفة في الثقافة ، سواء كانت شعراً أم كهانة »[2] .

---

(١) البيهقي كما في فيض القدير : ٥/ ٤٤٨ وهو حسن .

(٢) مفهوم النص ، د . نصر حامد أبو زيد ، ص/ ٣٣ـ ٣٤ .

وكأنما غاب عن ذهن الدكتور نصر أن ظاهرة وحي النبوة أقدم من ظاهرة الاتصال بالجن إن صدق الاتصال بهم ولم تكن الأخبار مجرد أكاذيب وخزعبلات .

وتبدو لنا الكهانة انحرافاً عن أصل ديني متأصل في النفوس ، فوحي النبوة قديم قدم نبوة آدم عليه السلام ولم يمر زمان إلا وفيه نبي ، كذلك لم تخل بقعة من النبوة ، والعرب أبناء النبيين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فلا يعقل أن تكون الكهانة هي الأصل في الذهن العربي .

ولو كان العرب يصدقون الكهانة ، لكان غريباً أنهم يستصعبون أمر الإسلام الذي جاء عن طريق وحي ، فكيف كانوا يعلمون أنه وحي ثم يعترضون ، ولم يعترضوا على كهانة الكهان ، فهذا تناقض واضح .

إن مثل هذا التأويل له مخاطره ومزالقه الخطيرة ، فقد يقال بأن الوحي من الجن . بل الحق أن العرب على معرفة أولية بالوحي وصلته بالنبوة والملائكة ، وذلك لما بقي من الديانة الإبراهيمية الموحدة ، وإن امتزجت بالوثنية الوافدة .

وثمة دليل على هذا وهو مطالبتهم للنبي ﷺ تعجيزاً أن ينزل عليهم ملكاً رسولاً ، كما في قوله عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٥] .

ومفهوم الملائكة إذن ، المتصل بالوحي ، وارد في المنظومة الفكرية العربية ، وهذا يغني الباحثين عن الاتكاء على ظواهر فردية وهي الكهانة التي لم تملأ كل مكان عربي ، فالملائكة معروفون ، بل هم آلهة معبودون من دون الله ، قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٠] .

كما تصوروا الملائكة إناثاً وفق انحراف ما في أصل العقيدة قال تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء : ٤٠] .

وننتهي إلى أن هذا من سوء الاستنتاج وبطلانه ، فلو كانت مسألة الكهانة والجن هي الأساس المعرفي للنبوة ، فكيف تنقلب النبوة مناهضة للأساس المعرفي وتدمره[1] .

ج ـ كيفيات الوحي :

لابد أن نبين بادئ ذي بدء أن مسألة اتصال البشر بالملك ، ليست من المسائل المعقدة كما ذهب الدكتور نصر حامد أبو زيد ، وراح يكشف الغامض المعقد من خلال المعروف في الثقافة العربية قبل الإسلام من العوالم غير العادية في الجن والكهانة ، فالأمر سهل المنال من خلال الخبر الصادق الذي تحدث عن وسيلة الرسالة .

لابد أن ننطلق من الآية الكريمة آنفة الذكر : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ١٥١] .

والذي نفهمه من الآية أن الكيفيات التي يطلق عليها أيضاً اسم المراتب ثلاث ، وهي : الإلقاء المباشر بطريق خفي سريع بلا وساطة الملك ، والكلام من وراء حجاب ، وإرسال الملك .

وننظر إلى تذييل الآية بالعلو والحكمة « عليّ حكيم » من صفاته تبارك وتعالى ، فنتوافر على فائدة عظيمة وملمح جليل ، فالعلو مناسب للسياق اللاحق ، لأن أمر الوحي فوق المستوى البشري ، ولا تدركه الحواس ،

---

(١) راجع العواصم من قواصم العلمانية ، د . عمر عبد الله كامل ، ص/ ١٢١ .

فهو غيبي ولو كان في عالم الشهود ، ثم أردف البيان الإلهي بالحكمة ، إذ اقتضت الحكمة الإلهية المواءمة للواقع أن يختار الله تعالى هذه الكيفيات .

وقبل تفصيل هذه المراتب ، لا بد أن نحمل كلام الحليمي (٥٦٧ هـ) الذي نقله لنا الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) محمل التفصيل الزائد أو المبالغة في التقسيم ، إذ رأى أن الوحي كان يأتي على النبي ﷺ على ستة وأربعين نوعاً ، وغالبها في صفات عامل الوحي ، ومجموعها يدخل فيما سنذكر من حدّ وسط ، لا يخرج عن إطار الحالات التي حددتها الآية الكريمة .

١ـ الرؤيا الصادقة :

وهي تنضوي في النوع الأول من الكيفيات التي حددتها الآية وهو في قوله : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ ، قالت عائشة رضي الله عنها : « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة »[١] .

ثم حصل هذا في مناسبات سجل القرآن الكريم بعضها ، قال عز وجل : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة »[٢] .

وهذا الوحي عن طرق الرؤيا ليس قاصراً على نبيّ الإسلام عليه الصلاة والسلام ، فقد ألقي أمر إلهي في قلب أمر إبراهيم أبي البشر عليه السلام

---

(١) البخاري ، بدء الوحي ،ح(٣) ، ومسلم ، الإيمان ، ح(١٦٠) ، والترمذي ، المناقب ، ح (٣٦٣٦) .

(٢) رواه البخاري ، وانظر فيض القدير : ٥/ ٢٩٣ .

في منامه ، وقد سجل القرآن هذا الأمر على لسان إبراهيم : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وصيغة المضارع في (أرى) تؤكد أن المنام كان متكرراً في أكثر من ليلة ، ليمتحنه الله في القضاء على حبه لابنه ويفرغ قلبه لحب الله تعالى ، ومن نافلة القول : إن إسماعيل هو الذبيح وليس إسحاق عليهما السلام كما تدعي الرواية اليهودية التي لا تريد أن تبقي للعرب شرفاً .

والرؤيا وحي ، وهي جزء من النبوة ، باعتبار ما يقترن بها من التيقن بأنها من عند الله ، والوحي إلى النبي ﷺ بالرؤيا أول أمره إنما هو إعداد نفسي وروحي للوحي الصريح في لحظات اليقظة ، وليست الرؤيا تمهيداً فكرياً إعلامياً ، لذلك فوجئ عليه الصلاة والسلام بالملك في غار حراء ، إذ لم يرتقب لقاء الملك سابقاً ، وبمعنى آخر ، ما رآه سابقاً من رؤيا لا يتصل بالأوامر والنواهي ، أو هو ليس بالتشريع .

٢ـ الرسالة المَلَكية القلبية :

وذلك أن يأتي الملك إلى النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء عليهم السلام ، فيلقي في قلبه الأمر المقضي ، من غير أن يُرى الملك ، ويكون هذا في حال اليقظة مع عدم الرؤية ، ولم يرد أنه يسمع في هذه الحال صوتاً أو يتصور معنى ، بل يتلقى معنى .

وقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب »[1] ، وهذا يتصل بوحي السنة ، وههنا لا نحتم الصورة ولا الصوت .

---

(١) ذكرته مصادر متعددة تؤكد تعدد الصحابة الرواة لهذا الحديث الصحيح ، المستدرك=

٣ـ مخاطبة الرجل :

ونعني أن يأتي الملك متمثلاً رجلاً ، فيخاطبه ويعي عنه ، ويراه غير النبي ﷺ رجلاً أيضاً ، وقد كان هذا في حديث عمر رضي الله عنه ، وسؤال جبريل على أنه رجل غريب عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة .

وذكر أن جبريل عليه السلام كان يأتي في صورة رجل أعرابي غير معروف ، أو في صورة الصحابي دحية الكلبي ومعنى اسمه : رئيس الجند ، وكان قد أسلم بعد بدر[1] ، ويذكر الرواة أن الله عز وجل قد منحه وسامة ، حتى كان يشبه عيسى عليه السلام ، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام قد اختاره رسولاً إلى الملوك لدعوتهم إلى الإسلام .

واستدل العلماء على هذه الكيفية بالقرآن الكريم ، إذ جاء فيه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٨ـ٩] .

هذه الآية مكية ، وهذا يؤكد وجود دحية بل سبق بصور رجال آخرين قبل إسلامه ، وعلم النبي عليه الصلاة والسلام بأنه جبريل ، وخفاء الأمر على الصحابة يشبه ما يجيء في كتمان السر عن النظارة في حبكة القصة .

= للحاكم النيسابوري ٢/ ٤ ، وابن ماجه ٢/ ٧٢٥ : رقم (١٦٣٥) ، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي : ١/ ٩٢ـ ٩٣ ، حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣/ ١٥٦ وغيره ، وصحيح ابن حبان برقم (١٠٨٤) ، والرسالة للإمام الشافعي ، ص/ ٩٣ والترغيب والترهيب للمنذري : ٢/ ٢٣١ ، ومجمع الزوائد للهيثمي : ٤/ ٧٢ ، وفتح الباري : ١/ ٢٠ ، وعمدة القاري : ٢/ ١٤ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٨/ ٥٨٧ ، وغيرهما . وشرح المواهب اللدنية : ١/ ٢٢٥ ، وروح المعاني للآلوسي : ٢٧/ ٥٠ .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : ١/ ٤٧٤ .

٤ـ الصوت الملكي :

ويعني أن يأتي الملك بصوته من غير ظهوره شكلاً وهو الكثير ووحي القرآن كله من هذا القبيل ، وههنا يأتي الصوت مثل صلصلة الجرس وهو أشد ما يكون ، ويسمى بالوحي الجليّ .

قالت عائشة رضي الله عنها ، إن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلّمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً »[١] .

ويشرح الإمام الخطابي(٣٨٨هـ)معنى الصلصلة ، فيقول : « والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته أول ما يسمعه ، حتى يفهم بعد ، وقيل : هو صوت خفق أجنحة الملك ، والحكمة في تقدمه أن يُفرغ سمعه للوحي ، فلا يُبقي فيه مكاناً لغيره »[٢] .

٥ـ الصوت والصورة الملكيان :

وذلك أن يأتي الملك على صورته الملكية التي خلق عليها غير متمثل بغيره ، فيوحي وههنا صوت ورؤية ، ولكن هذه الكيفية نادرة إذ حدثت مرتين ، وقد روت عائشة رضي الله عنها كما في المسند « أن النبي ﷺ لم ير جبريل على هذه الحال إلا مرتين : مرة في الأرض وهو نازل من غار

---

(١) البخاري ، بدء الوحي ، ح (٢) ، ومسلم ، الفضائل ، ح (٢٣٣٣) ، والموطأ : ١/ ٢٠٢ ، والترمذي ، المناقب ، ٤/ (٣٦٣٨) ، والنسائي ، الافتتاح : ٢/ ١٤٦ ، والمسند : ٦/ ١٥٨ .

(٢) الإتقان للسيوطي : ١/ ٤٤ .

حراء ومرة في السماء عند سدرة المنتهى » . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ـ ١٤] .

٦ـ الكلام وراء الحجاب :

ويعني أن الله عز وجل كلم رسوله من غير وساطة الملك ، ولكن الكلام من وراء حجاب ، هذا ما تشرف به موسى عليه السلام كما جاء في الآية : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] ، وقد نال نبينا عليه الصلاة والسلام هذا الشرف ليلة المعراج ، بعد أن استقرت فريضة الصلوات الخمس .

فالكلام من وراء الحجاب ، يعني مجرد سماع الصوت ، وهذا الحجاب لا شك واقع في مكان المتلقي ، أي مكان الكلام ، وليس المقصود حجاب المتكلم وراء شيء من مخلوقاته ، فهذا لا يجوز على الله عز وجل ، لأن أصل الحجاب من صفات الأجسام مما ينفى عن الذات الإلهية ، ولعل حجاب الشجرة في تكليم موسى عليه السلام يوضح خصوصية الموقف وهذا الخطاب ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

٧ـ الكلام المباشر :

ويعني أن الله عز وجل لا يتخذ وساطة الملك ولا يتخذ حجاباً ، فاللقاء مباشر ، وهذا كما حدث فوق السموات وبعد فرض الصلوات ومضاعفة الحسنات بعشرة أمثالها ، وتدخل هذه الكيفية ضمن قوله عز وجل : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ أي إعلاماً خفياً ، فليس الأمر كأي لقاء وهذا بديهي .

د ـ دردشة وردود :

وههنا لا بد من مناقشة بعض القضايا وجلاء الأمور لاستبعاد الغامض أو المشكل ، فقد استشكل بعضهم ما وردت به الأحاديث من مسألة الحجاب ، وما جاء صحيحاً من أنه ﷺ قد رأى ربه ليلة المعراج ، فلا تتفق هذه الرؤية مع وجود الحجاب ﴿ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ ، مما يعني تعارض النصوص الشرعية ، إذ لا يوجد في الكيفية السابعة حجاب .

ويؤكد الدكتور نور الدين عتر[1] أن هذا الإشكال مدفوع ، هذا إذا علمنا أن الوحي الإلهي في هذه المرتبة السابقة لا يشبه خطاب الخلق ، بل هو داخل في قوله ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ ، لأن الوحي إعلام في خفاء ، وقد جلّى الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) هذه المسألة في تفسيره ، فقال : « كلاماً خفياً يدرك بسرعة ، لأنه تمثيل ، وليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة ، يتوقف على تموجات متعاقبة » .

والمسألة الأخرى أن ثمة كيفية لقاء الشهودي بالغيبي ، وهو فوق المعهود ، هنا طريقان[2] :

أحدهما أن رسول الله ﷺ ينخلع من صورته البشرية إلى الصورة الملائكية ، والثاني أن الملك ينخلع إلى البشرية والأول هو أصعب الحالين ، لأنه يشتمل على مفارقة الذات وتغيير معهود لا نتصوره ، أما غير المعهود إذا صار معهوداً فهو أسهل ، ولا ننكر مع هذا الصعوبة والشدة على الجبلة البشرية .

وثمة إشكال انتزعه الدكتور نصر حامد أبو زيد من مقدمة ابن خلدون

---

(١) علوم القرآن الكريم د . نور الدين عتر ، ص/١٦ وتفسير البيضاوي : ١/ ١٤٩ .

(٢) راجع إرشاد الساري للقسطلاني : ١/ ٥٩ ٦٠ ، والإتقان للسيوطي : ١/ ٤٣ .

(٨٠٨هـ) ، ليصل إلى ما ينافي الحقيقة ، وننقل قول ابن خلدون على طوله لنزيل الإشكال ونبعد الشبهة ، قال : « وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا ، فتارة يسمع أحدهم دوياً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقي إليه ، فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه ، وتارة يتمثل له الملك الذي يُلقي إليه رجلاً ، واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه ، والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى »[1] .

وكان قد اكتشف بعد ذلك لطيفة بلاغية ليته سكت عنها فأسكت غيره : « وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي ، وفي الثانية بصيغة المضارع ، وعيت أعي لطيفة من البلاغة ، وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي ، فمثل الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام ، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غب انقضائه ، فناسب عند تصوير انتفائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ، ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي ، فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد » .

وهذا يعني افتراضاً ضمنياً بأن التلقي الأول الذي نعرف أن منه وحي القرآن ليس كلاماً ، ولم ينتبه إذن ابن خلدون إلى أن الوعي إذا لم يتلق

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص/ ٩ بحذف عبارات .

إلا صوتاً مبهماً ، فلماذا يكون وعياً حيث لا موضوع ، والنوع الأول عند أبي زيد بإرشاد ابن خلدون هو رمز من الكلام ، والنوع الثاني متصف بالرؤية[1] .

وثمة قضية مقطوع بصحتها ، هي أن القرآن جميعه نزل وفق الكيفية الرابعة أي بصوت الملك ، إذ يتحول عليه الصلاة والسلام من البشرية إلى الملكية ، وغير هذا إما أن يكون وحي السنة كما أسلفنا ، أو يكون نتيجة نقول واهية السند .

فقد نقل الإمام السيوطي : « كان أول نزول الوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء وتلقينه سورة القلم رؤيا ، لأنه كان في سنة من النوم »[2] .

وهذا اختلاف جليّ ، إذ لا يستلزم المنام كل ما ورد من صور الفزع ، كما أن المدارك العقلية في المنام تستسلم للعقل الباطني مما هو مقرر في علم النفس . فكيف تتلقى الأخبار والتشريعات المتسمة بالنقل الحرفي لا بالإفهام وحده .

كما لم يرد أن شيئاً من القرآن قد نزل عن طريق جبريل عليه السلام وهو في صورة رجل ، ولو وجد « لكان هذا مثالاً للشك والتلبيس على ضعفاء الإيمان ، ولكان فيه مستند للمشركين في قولهم : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل : ١٠٥] ، فكان من الرحمة بالعباد ، وعدم التلبيس عليهم أن لا ينزل إلا في الجو الملائكي الروحاني »[3] .

واقتضت الحكمة الإلهية كيفية للوحي اتسمت بالشدة في كيفية وحي القرآن ، ولم تقصد إلى المنام أو الإلهام على سهولتهما ، ويقول الشيخ

---

(١) مفهوم النص ، ص/ ٤٧ .
(٢) الإتقان : ١/ ٤٥ .
(٣) مدخل ، د . أبو شهبة ، ص/ ٦٤ـ ٦٥ .

محمد الغزالي رحمه الله : « إن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر ، ونزل الملك به في هذا المظهر ، قطعاً لكل شبهة في أنه ألفاظاً ومعاني من عند الله ، وأن محمداً حمله تحميلاً بعد أن اصطفى له واختصّ به ، فهو ليس افتعال عابد منقطع تخيل فخال ، ولا صناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنميق المقال ، وإنما هو كلام الأحد الحق الكبير المتعال »[1] .

هـ ـ مظاهر الوحي وخصائصه :

الوحي أمر عظيم ، فيه تجاوز لحدود المادة وعالم الشهادة ، فهو يتطلب استعداداً نفسياً يُهيأ في الأخيار الأنبياء من عند الله عز وجل ، ويستدعي المشقة عند المتلقي .

ولكن قبل سرد الأحاديث النبوية التي تبيّن مظاهر هذا الوحي ، ينبغي تأكيد بعض القضايا التي تعدّ خصائص للوحي[2] ، ندفع من خلالها الفهم المغلوط لخصوصية الوحي وتبجّح الحاقدين :

١ـ الوحي حدث فجائي :

إن الوحي حدث تلقائي طرأ على حياته الشريفة عليه الصلاة والسلام من غير توقع أو تطلع ، فعلى الرغم من تعبده في غار حراء ، لم يدر في خلده أنه سيكون نبياً ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : ٦٦] ، بل إن كلمة (تعبد) بعيدة عن السياق ، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن حينها موحداً ، فيمكن أن يقال تفرّد أو تزهد .

---

(١) فقه السيرة ، محمد الغزالي ، ص/ ٩٥ـ ٩٦ .

(٢) راجع وحي الله ، د . حسن ضياء الدين عتر ، ص/ ١١٣ـ ١٢٦/ .

وهذا ما يتبدى للنظر الموضوعي في حديث غار حراء : « فجاءه الملك ، قال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلتُ : ما أنا بقارئ ، فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ »[1] [العلق : ١] .

ونستنبط من هذا الحديث الشريف بعض الفوائد الجليلة ، ففي الغطة الأخيرة لم يبلغه الجهد وكأنه قصد وعيه من غير إرهاق ، ليفهم ويعي إبان المرة الثالثة التي تمثل الإنذار ؛ أي كلام الله تعالى .

والغطيط لا يعني النوم إنما هي مجرد استكانة ، ويبدو أنه طويل الأمد نسبياً ، وهذا واضح في حرف العطف (ثم) الذي يفيد تراخي الزمن .

وفائدة الغطيط المتكرر أنه يفرغه من النظر إلى أمور الدنيا ، ويقبل بكليته إلى ما يُلقى إليه ، ولعله يفيد رفعه إلى المستوى الملائكي ، وتخليصه من الحيثيات الجسمانية ، بل فيه « نفي لأن يكون الحديث نفسياً أو خيالياً ، وتأكيد للمصدر الخارجي عن الذات »[2] .

وكأن الأول (المَلَك) يؤكد بالتكرار أن ما نقوله لك ليس من جهدك المعرفي الشخصي وليس من حدود طاقتك ، فلا يتحصل بقراءة ، وكأن الثاني (النبي عليه الصلاة والسلام) يؤكد بالتكرار أنه لا يجيد القراءة ، وكيف لا يؤكد ، وقد أصرّ في التكرار على حرف الجر الزائد في الخبر (ماأنا بقارئ) .

---

(١) البخاري ، بدء الوحي ، ح (٣) ، ومسلم ، الإيمان ، ح (١٦٠) .
(٢) علوم القرآن ، قحطان الدوري ص/ ٦١ .

لذلك من الجهالة التي تفترق عن الأميّة أن يقال : إنه غير أمي ، متمسكين بدلالة طلب القراءة منه ، وإنه من التأويل المتعسف أن يقال : إنه يرفض القراءة ولا يُعلم بعدم المعرفة ، فنقول : فلماذا لا يستجيب لمن روّعه ، ولماذا لا يخلص نفسه وجسمه من مشقة كائن غريب ؟

وقد اختلطت الكتابة بالاكتتاب عند المستشرق لوبلوا[1] ، فظن أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجيد الكتابة بدلالة الآية : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] .

فليدرك أتباع لوبلوا أن العرب المعارضين كانوا على يقين بأميته عليه الصلاة والسلام ، بدليل أنهم قالوا كما سجل القرآن : « اكتتبها » أي طلب الكتابة من غيره ، ولم يقولوا كتبها ، فالتعبيران مختلفان ، فمقصود الآية اتهامهم بأنه تُتلى عليه الأساطير شفاهاً ويأمر بكتابتها ، هذا مفاد الدعوى .

ولم يقتصر الأمر على جهل باللغة كما عند لوبلوا ، بل صار زعماً متهافتاً عند غيره ، فالمستشرق ألفريد جيوم[2] يشكك بالأمية رغم تصريح القرآن بها ، ليصل إلى أنه كان يقرأ الكتب السماوية ويفيد منها ، وهي تهمة لم تصدر عن معاصريه العرب المعارضين الذين كانوا منصفين ، فلم يقعوا في هذا التخبط وتجاوز الواقع .

فليس من المعقول أنه لا يقرأ الفواتير أيام اشتغاله بالتجارة ، وكأنه في نظر جيوم تاجر عالمي في البورصة وغيرها ، وأنه لا بد قارئ للرسائل أيام النبوة ، وكأنه لا يوجد من يقرأ له ، ويتجاهل معنى الكتابة في صلح

---

(١) راجع مدخل إلى القرآن ، د . عبد الله دراز ، ص/ ١٤٠ .

(٢) راجع مصدر القرآن ، د . إبراهيم عوض ، ص/ ١٠٧ـ١٠٨ـ١٠٩ .

الحديبية ، فلا يقر بأنه أمر منه وأن الفعل يستخدم مجازاً (مجاز عقلي) وفسر كما يهوى الآية الكريمة : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] تفسيراً باطلاً ، هذا إن لم تكن الأمية مستمرة إلى بداية البعثة فقط ، فهو يرى أن ذلك قاصر على الجهل بقراءة كتب اليهود والنصارى .

وفهمه الأعوج هذا يبطل حجة القرآن في هذه الآية ، وتصبح غير ذات معنى ، إذ يقول له معاصروه : إن كنت تعرف الآن القراءة والكتابة ، فيمكن أن تنقل من كتب الرسالات السابقة .

إذن لم يبق إلا أن يقول كان يكتب باليسرى ، وهذا فهم مضحك ، وإلا لم يقبل منه أحد قوله عليه الصلاة والسلام : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »[1] .

أما الأمر بالقراءة فهو أمر تكوين لا تكليف ، هذا كما قال الشيخ محمد رشيد رضا[2] ، أي كن قارئاً ، ولذلك قال له في الثالثة : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق : ١] ، أي كن قارئاً باسمه ومن قبله وبإقداره إياك على القراءة ، لا بحولك وقدرتك ، كما خلق الإنسان من علق وجعله سميعاً بصيراً .

فأمية النبي عليه الصلاة والسلام حقيقة قرآنية ، مدلول عليها بشهادة التاريخ وليس يصح إذن بعد المرويات الصحيحة أن نقبل ما نقله الإمام السيوطي : « جاء جبريل إلى النبي ﷺ بنمط ، فقال : اقرأ ، فقال ما أنا بقارئ . . » وما نقله عن الإمام الزهري (١٢٤هـ) من أن النبي ﷺ كان بحراء ، إذ أتى ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب : (اقرأ باسم

---

(١) صحيح كما في فيض القدير : ٢/ ٥٤٩ .

(٢) الوحي المحمدي ، ص/ ٨٥ .

ربك الذي خلق إلى قوله : ما لم يعلم »[1] .

والنمط هو الثياب ، فهل يُعقل أن يحتاج الأمر إلى قطعة كبيرة كالثياب حتى تقرأ كلمات جاءت بحجم السطرين ، فهذا كلام مدفوع بالمنطق وتضعيف السند ، كما يدفع ما جاء عن اصطحاب الملك الذي نتعجب من عدم ذكر اسمه ، اصطحابه قراطيس ، وكأنه لا يوحي له بسطرين بل يوحي بسور متعددة .

ومن الدلائل النقلية على كون حدث الوحي فجائياً ، أنه عليه الصلاة والسلام انطلق في إثر ما جرى في الغار إلى زوجته مرتاعاً ، وسرد لها الخبر متعجباً وجلاً ، ثم انطلق معها إلى ورقة بن نوفل ، لطلب التفسير ، وذلك بعد أن قال لها : « ولقد خشيت على نفسي » .

ويرى ابن حجر العسقلاني[2] مما يتصل بالقضية أنه لم يقل له إنه الناموس الذي نزل على عيسى عليه السلام ، لأن اليهود ينكرون نبوة عيسى ، أي ينكرون صلته عليه السلام بوحي الله ، فذكر له الثابت عند الطائفتين ، فقال : الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام الذي لا ينكره اليهود ولا النصارى .

أما أن خديجة رضي الله عنها وقعت تحت تأثير ورقة ، فهذا محض افتراء من المستشرق واط صاحب كتاب « محمد في مكة »[3] ، وما تفوه به من تأثر النبي عليه الصلاة والسلام بورقة وحماسة فكرته ، فهذا مردود في العقل والشرع ، ونعود إلى مثله في مكان آخر ، وهو كلام باطل يردده كثيرون منهم .

---

(١) الإتقان للسيوطي ، ١/ ٢٣ـ ٢٤ .

(٢) فتح الباري : ١/ ٢٠ .

(٣) وحي الله ، د . حسن ضياء الدين عتر . ص/ ١٣١ .

وتؤكد الروايات الصحيحة ، أنه عليه الصلاة والسلام كان ماشياً ، فطرق سمعه صوت من السماء ، فإذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض ، ففزع منه ، وطلب من أهله التزمل لكثرة الارتجاف .

لكن الوحي لم يدعه يركن إلى ما يريد ، فهاهو ذا يستنهضه ، إذ ينزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١ـ ٢] ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١ـ ٢] مرة بعد مرة ، مما يدل على أن الوحي طرق حياته مباغتاً ولم يكن في الحُسبان ، وقد استمرت المفاجأة بعد ذلك في تعدد المكان وتعدد الزمان ، إذ ينزل عليه ليلاً أو نهاراً ، وفي السفر أو في الحضر ، وفي الركوب أو في الجلوس .

وينبش الكفرة اليوم عن مرويات ضعيفة حتى يبرهنوا على نقض المتفق عليه في المصادر الصحيحة ، فقد نقل أحدهم عن كتاب السيرة النبوية لأبي الفداء (٧٣٢ هـ) أن النبي عليه الصلاة والسلام في لحظة ولادته « أخذ قبضة من التراب ، فقبضها ، ورفع رأسه إلى السماء »[١] . والركاكة واضحة في أنه أخذ قبضة وقبضها لكن هذه المقولة فتحت باب الخيال لكاتب غربي « واشنجتون آرفنج » ، حتى قال : « ولما وقف على قدميه ، ورفع عينيه إلى السماء ، قال : « الله أكبر ، لا إله إلا الله وأنا نبي الله »[٢] .

وقال قرينه جولدزيهر : « ففي مكان كان يشعر أنه نبي يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأن لها عليه مثل أولئك الرسل ، أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال »[٣] .

---

(١) السيرة النبوية ، أبو الفداء ، ص/ ٢٠٦ .
(٢) حياة محمد ، آرفنج ، ص ٣١ .
(٣) العقيدة والشريعة ، جولدزيهر ، ص/ ١٩ .

٢ـ الوحي حدث إلزامي :

الوحي أمر إلهي ما نص على هذا البيان القرآني والسنة الشريفة ، وشاهد آثاره الصحابة الكرام ، فلا اختيار في الأمر ، ولا دخل للنبي عليه الصلاة والسلام في الوحي ، ولا سبيل تجاه هذا الإلزام لا إلى اجتلابه ولا إلى التخلص منه .

ولقد وردت عبارة (قل) ثلاثمئة وثلاثاً وثلاثين مرة في سور مكية ومدنية ، لتكون مذكرة للقارئ منبهة على أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لا قبل له في القبول والرد ، إنه تلقين بقوة وحكمة ورحمة ، وقد تجلّى الإلزام في جانبين :

آـ الأعراض الجسمانية :

لقد كانت تعتريه صلوات الله وسلامه عليه أعراض إلزامية كاحمرار الوجه وتتابع الأنفاس ، مع تحوّل الوعي عما حوله من الناس والموجودات إلى مَلَك الوحي ، كل هذا مع الشدة .

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٧٣هـ) كما في المسند : سألت النبي ﷺ : هل تحسّ بالوحي ، فقال : « نعم أسمع صلاصل ثم أسكت عن ذلك ، فما من مرة يُوحي إليّ إلا ظننت أن نفسي تفيض » .

ونعود إلى حديث عائشة رضي الله عنها الذي سبق أن ذكرناه ، فقد قال فيه ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأعي ما يقول » ثم قالت رضي الله عنها : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

والذي نفيده من هذا النص الشريف أنه غير مُغمى عليه ، فهو في حال

وعي آخر دونه وعي الوجود الشهودي ، لذلك كرّر عبارة الوعي ، « وقد وعيت عنه » و« فأعي ما يقول » سواء في حال الصعود العمودي والانسلاخ من البشرية ، وفي حال التلقي الأفقي ، فالوحي وعي لا إغماءة ولا تهويم ولا اضطراب نفسي ، وهو وعي كامل إذن قبل الوحي وفي أثناء الوحي وفيما بعده .

وغرابة الموقف العظيم تتجلى في اقتران العرق بالبرد ، فإن الحال في الحر أشد ، والقوة يُومأ إليها بعدئذ في اختيار الألفاظ ، يفصم ، يتفصد ، صلصلة ، أما الصورة الصوتية في اختيار صلصلة الجرس ، فإنها تفيد القوة والإيقاع المتكرر كما في تكرار حروف الكلمة ، وهي صورة تقريبية ، ويبدو لنا أن حيّز الوحي الزماني يختلف عن حيّز القراءة في عالم الشهود عند البشر جميعاً .

وثمة ثقل كما في حديث عائشة رضي الله عنها : « كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ، فلا تستطيع أن تتحرك » وتلت قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[1] [المزمل : ٥] ، ومفهوم الثقل هنا يقصد به التقديس والجلالة ، فليس يقصد الثقل الحسي وأن للآيات وزناً .

وروت عائشة أيضاً رضي الله عنها في صحيح البخاري : « كانت راحلته تبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه مرة وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضّها » ، ونفيد هنا أن المكان الذي ينزل فيه القرآن عادي تأكيداً على التفاعل بين النص والواقع .

---

(١) الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد : ٦/ ٤٥٥ وآخر (٦٦٤٣) عن ابن عمر ، وأخرجه الحاكم : ٢/ ٥٠٥ وقال صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

أما الأعراض الجسمانية التي توخاها الدارسون في حديث عمر رضي الله عنه « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يُسمع عند وجهه كدويّ النحل »[1] .

فهو حديث ضعيف وبعضهم جعله منكراً ، فلا نحتج به ، ولا ينبغي أن يحتج به الدكتور أبو زيد الذي يُوصف بالعلمانية والعلم الصحيح والتجديد ، بل فهم من الدوي الشيفرة ، فإذا استبعدنا الدوي بسند الرواية سقط ما يبني عليه هو وسابقه ابن خلدون .

ب ـ الأعراض النفسانية :

وهي أحوال مواكبة للأعراض الجسمانية تثبت لكل ذي لب أن ليس من مجال لافتعالها ، فقد تحدّث عن الرعب الشديد ، وأراد أن يتملص طواعية من ملك الوحي ، لكن سلطان الوحي لم يترك له مناصاً من الإذعان والتلقي .

إن مقاومته عليه الصلاة والسلام أول الأمر تدل على التعارض البيّن بين وجهته التي اتخذها بدافع من سجيته الشخصية ، وبين حتمية النبوة التي طوقت إرادته ، وهيمنت على ذاته الشريفة ، إن هذه المقاومة منسوبة أيضاً إلى أنبياء آخرين ، وهي أمر طبيعي .

٣ ـ الوحي ظاهرة مستقلة :

ونقصد أن الوحي ظاهرة مستقلة عن إرادته وعن ذاته ، لأنها ليست من

---

(١) رواه الترمذي ، ٢/١٥١ ، وذكر أن في سنده اختلافاً بسبب يونس بن سليم وهو مجهول ورواه الحاكم : ١/٥٣٥ ، ٢/٣٩٢ ، وقال النسائي : « هذا حديث منكر لا نعلم أحداً رواه غير يونس ويونس لا نعرفه » كما سئل عنه تلميذه عبد الرزاق فقال : أظنه لا شيء ، هذا كما ذكر الشيخ محمد ناصر الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة ، لمحمد الغزالي .

صنع المخلوق إنما هي ظاهرة خارجية يتلقفها النبي الموحى إليه ، وإن ما سبق من أعراض تفيد أن الوحي خارج عن الذات البشرية وفوق إبداع الطاقة البشرية ، فالموحى إليه عاجز عن استحضاره ، كما هو عاجز عن دفعه .

والدلائل النقلية على هذا كثيرة ، منها فتور الوحي في أول الدعوة في مكة المكرمة ، وكان هذا الفتور لمدة اختلف العلماء في زمنها بين أشهر عدة وثلاث سنوات[1] ، وإن كان المرجح ألا تصل إلى ثلاث سنوات كما أخبرنا فضيلة الدكتور نور الدين عتر . فالانقطاع حكمة جليلة ، إذ حملته عليه الصلاة والسلام على التعجب والتساؤل ، وانتشر الخبر بين الناس وشمت به بعضهم حتى نزلت سورة الضحى : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2] [الضحى : ١ـ ٤] . فكان هذا الانقطاع مما أثبت لمن حوله مؤمنين وكفرة أن الوحي ظاهرة إلهية .

كذلك استبطأ عليه الصلاة والسلام أمين الوحي جبريل عليه السلام ، بعد أن تلذذ بقدسية الوحي ، فحثه على الإكثار ، كما جاء في صحيح البخاري فقال : « مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤] .

وروى البخاري رضي الله عنه فيما يخص وحي السنة أن يعلى بن أمية قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما : « أرني النبي ﷺ حين يُوحى إليه ، قال : فبينما النبي ﷺ بالجعرانة ، ومعه نفر من أصحابه ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمّخ

---

(١) البرهان للزركشي : ١/٢٠٦ ، وتاريخ القرآن للزنجاني ، ص/ ٣١ .

(٢) رواه الإمام البخاري ، وراجع أسباب النزول للواحدي ، ص/ ٣٧١ .

بطيب ؟ فسكت النبي ﷺ ساعة ، فجاءه الوحي ، فأشارعمر رضي الله عنه إلى يعلى فجاء يعلى ، وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله ﷺ محمرّ الوجه ، وهو يغطّ ، ثم سُرِّي عنه ، فقال : أين الذي سأل عن العمرة ؟ فأتي برجل ، فقال : اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك »[1] .

وهناك آثار ذكرها ابن كثير (٧٧٤هـ) في تفسيره ، تثبت أن جبريل عليه السلام احتبس عن النبي ﷺ ، وأنه طلب الوحي لبعض المسائل المهمة ، فمكث شهراً لا يأتيه وحي .

ومن هذا القبيل سؤالهم عن الروح ، فقال لهم : « أخبركم بما سألتم غداً » ولم يقل إن شاء الله ، فتأخر الوحي خمس عشرة ليلة معاتباً إياه ، مبيناً له الجواب ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣ـ ٢٤] .

وكان عليه الصلاة والسلام كما ورد في الخبر الصحيح يحرك شفتيه في أثناء تلقي الوحي حرصاً منه على الحفظ ، وهذا من بقايا الطبائع الجسمانية والسلوك العقلي البشري ، فأمره تبارك وتعالى بالاستسلام الكامل قلباً وفكراً وجارحةً ، فقال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ـ ١٧] وقال عز من قائل : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، مما يدل على أنه خارج عن ذاته .

---

(١) البخاري ، الحج ، باب غسل الخلوق من الثياب ومسلم ، الحج ، باب ما يباح للمحرم ، والنسائي ، الحج ، باب الخلوق للمحرم .

٤ ـ الاصطفاء الإلهي :

لقد اشرأبت أعناق المشركين من علية القوم إلى مقام النبوة الشريف ، فتملك الحسد قلوبهم ، فإذا كان الدافع إلى هذه الرغبة والأمنية البعيدة معنوياً ، فهو يدل على رقي القوم ، وإذا كان الدافع حسياً طلباً للمكاسب ، فهم قوم دون ، وهذا هو سبب الحسد والضغينة والحرب .

وقد بلغ الحمق واللجاج بالباطل أن تمنى كل واحد حصول الوحي له ، كما سجل عليهم القرآن هذه الأضحوكة ، قال تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر : ٥٢] ، فأجابهم المولى عز وجل بأن يشرف بالنبوة من صار أهلاً لها ، فقال : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

وعن تفضيلهم لشريفين عندهم هما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣١ـ٣٢] .

٥ ـ المعارف القرآنية العليا :

يتأكد لكل ذي لب أن المعارف القرآنية العليا هي فوق المطامح الإنسانية وإمكاناتها المحدودة ، فقد كان الوحي القرآني يُلقي إلى النبي عليه الصلاة والسلام عقيدة متميزة ، يناهض بها العقيدة الشعبية السائدة ، ويغير المفاهيم والأوضاع المنحرفة ، وهذا أمر لا تستحسنه الذات الإنسانية ، ولا تسعى إليه إن تعلّقت بزعامة أو حرصت على جاه ، لأن الأمر حرب خطيرة ، لا بد لها من مدد غيبي .

قال ورقة بن نوفل في حديث الوحي : « ياليتي كنت فيها جذعاً ـ أي : شاباً ـ إذ يخرجك قومك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أو

مخرجيّ هم ؟ » فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي » ، فالمهمة خطيرة ، معروفة بالمشقات من أولها إلى آخرها ، وأخطر ما يلقاه الداعية الموحى إليه وغيره خطورة التوحيد التي تبنى عليها الاتجاهات الخلقية .

كانت المعلومات والأفكار والأحكام خارجة عن حدود الفكر الإنساني عامة في العصر المحمدي ، ولا تأتي هذه المعلومات بالتأمل الفكري ولا بالتعلم ، والتناظر في الآيات القرآنية بعينيه وفكره لا بشيطانه القديم والمعاصر يتأكد أنه يستحيل أن ينشئها أي فكر إنساني ، فيكشف بدون أدنى ريب عن صدورها عن قدرة إلهية خلاّقة منظمة .

كذلك تأبى الحقائق الدينية والأخبار الغيبية الخضوع لأساليب اللاشعور التي تستشف حجاب المجهول بالفراسة الذكية والحدس الباطني السريع الجزئي ، مثلما تأبى الخضوع لمقاييس الحس الظاهرة التي تخترق حرمات المجهول بالأدلة المنطقية والاستنباط المتروّي البطيء[1] ، كل هذا لم نجده في أحواله عليه الصلاة والسلام التي ذكرناها .

٦ ـ صدود وردود :

اتهم العرب النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر ، كما سجل القرآن الكريم هذه التهمة : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] ، لكنهم اضطربوا بين نظرتهم إلى المتأثرين فعدوه ساحراً ، ونظرتهم إليه فعدوه مسحوراً ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٧] .

---

(١) مباحث في علوم القرآن ، د . صبحي الصالح ، ص/ ٢٧ .

فهذا يجلي اضطرابهم ، فكيف يكون الساحر مسحوراً ، أما تهمة الجنون فهم يعرفون في قرارة أنفسهم أن مضامين القرآن الشريفة وتشريعاته المعجزة ونظامه الفتي لا يستطيعه رجل فنان مفكر ، فكيف بالعادي أو المجنون الذي لا يجيد السير على الأقدام .

وفي رأينا أن تهمتهم بالشعر دلالة على قلة شأنهم وضحالة ثقافتهم الأدبية ، إذ لا يكفي الشعر مجرد الموسيقا الواضحة في الفاصلة ، ولم يكن أشعر العرب من قريش على أية حال ، ولم يفهموا الانزياح الأدبي الذي نسبوه إلى السحر وإلى الجنون جهلاً منهم .

وكان يرى الدكتور يوسف اليوسف أن أثر التوراة والفكر الإغريقي والأناجيل ضئيل في أسلوب القرآن ، ثم نظر نظرة جدلية ، وقال : « أما وجهة النظر الإلحادية ، فيسعنا القول بأن القرآن وهو ما يشكل قفزة هائلة في الأسلبة العربية والارتقاء الأدبي والكتابي ، يستحيل مقالاً أن يبلغ هذه القفزة ، إن الحياة لا تعرف الطفرة.. وذلك يعني أن تراكماً عقلياً في الأساليب الكتابية قد سبق القرآن ومهد له ، ولا يمكن أن يكون هذا التراكم شيئاً آخر غير الشعر الجاهلي »[1] .

ووجود القرآن مشروط بوجود الشعر الجاهلي ، قال : « وإذا ثبت أن الشعر الجاهلي منحول يبيت من الضروري أن يكون القرآن منحولاً ، لأنه يغدو مشروطاً لغير شارط ، وهذا ما لا يمكن أن يكون ، فلما كان القرآن حقيقة لا تقبل الطعن ، فإن شارطه الأدب الجاهلي حقيقة لا تقبل الطعن بدورها »[2] .

---

(١) مقالات في الشعر الجاهلي ، د . يوسف اليوسف ، ص/ ٨٥ وقد استخدم محمد جميل بيهم المنهج الجدلي في المضامين القرآنية ففسر وجود القرآن ظاهرة سوسيولوجية اجتماعية سياسية ، راجع فلسفة تاريخ محمد ، ص/ ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) مقالات في الشعر الجاهلي ، ص/ ٨٦ .

وكأن الدكتور يوسف تملّك وثائق تثبت أن الشعر الجاهلي قد نقل بالتواتر أو أنه كتب فور تلفظ الشعراء به ، وهذا عجيب ، والأعجب منه أن الدراسات الأدبية للقرآن تثبت القطيعة بين تصاوير الشعر والقرآن ، فضلاً عن الاختلاف في الموضوعات ، وإذا كان الفن القرآني تلمذة على الفن الشعري الجاهلي ، فأين الجدة وأين يكمن الإعجاز ، إن القرآن استخدم اللسان العربي وفجره بمعان شريفة جديدة وألبسها ثياباً فنية جديدة .

وهذا مستفاد في رأينا من ترديد بعض المستشرقين لمقولة استفادة القرآن من شعر أمية بن أبي الصلت (٩ هـ) الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « كاد أن يسلم » وقال : « آمن شعره وكفر قلبه »[١] ولم يثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام لقيه قبل البعثة ولا بعدها .

والذي نرجحه أن هذا الشاعر أمية قد استفاد من أخبار القرآن وصور الجنة وصور النار مما يكثر في العهد المكي ، وكان القرآن المكي قد اشتهر بين العرب منذ وقت مبكر بسبب الحج والتجارة ، هذا سبب التشابه الذي هو ضئيل جداً في شعره كما يثبت الرجوع إلى ديوانه .

وهذا بالإضافة إلى مصادر أخرى لأمية كما يقوله « هوارت » بموضوعية ، فهو يقلد التوراة في وصف النار ، ويقلد القرآن في وصف الجنة ، ويستعين بالأساطير الشعبية اليونانية مثل تشخيص الحيوان والنبات[٢] .

إن ذكر المعطيات الدينية في الشعر الجاهلي لا يغري بكونه مصدراً

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ١٥٠ .

(٢) مدخل إلى القرآن ، د . محمد عبد الله دراز ، ص/ ١٤٤ .

للقرآن إلا من أسرف في تعطيل العقل والنقل ، وأحسن ما يقال هنا قول الدكتور فؤاد المرعي : « فإن رجوع كثير من الشعراء الجاهليين إلى الله في أشعارهم ، وتضمينهم إياها القسم باسمه ، كذلك وجود تعابير قرآنية في تلك الأشعار ليست دليلاً على خطأ نسبتها إلى العصر الجاهلي ، بل دليل على شفوية الشعر الجاهلي الذي امتص الأغراض الإسلامية تدريجياً من خلال عملية تنقيحه المستمرة الطويلة عبر الرواية الشفوية في العصر الإسلامي السابق لجمعه وتدوينه »[1] .

ولم يتذكر أولئك الطاعنون الجدد أن هذه فرية لم يجرؤ العربي المعاصر للوحي أن يتفوه بها ، لأن الشعر العربي واضح ومعروف بين الناس ولو وجدوا شبهاً لفضحوا النبي عليه الصلاة والسلام بالسرقة الأدبية ، وكفوا أنفسهم القتال بالسيف ، واكتفوا بحرب إعلامية ناجحة ، تكذب الأخبار ، والحق أن ليس كل القرآن أخباراً ، فهل ذكر أمية أو غيره شيئاً من التشريعات ؟

وكانت المطاعن مختلفة ، إذ بعضهم يذهب إلى أن مصدر القرآن إبداع ذاتي بخيال أو عبقرية ، أو النوبات والصرع ، وبعضهم يرجع المصادر الخارجية من زرادشتية كما قال سنكلير تسدال وتلمودية وإنجيلية متأخرة شفهية مضطربة كما قال غيره .

فيرى كارل بروكلمان أنه اتصل عليه الصلاة والسلام ببعض اليهود والنصارى في مكة نفسها ، مع أنه يقر بأن معرفتهم الدينية كانت هزيلة[2] .

وقد صور إرنست رينان الفرنسي المشهور بحقده على العرب

---

(١) الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام ، د . فؤاد المرعي ، ص/ ٢٨ .
(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان ص/ ٣٤ .

والمسلمين ، صوّر المجتمع العربي صورة جميلة ، إذ جاء في مقاله « محمد ومصادر الإسلام »[1] ، أن الدين كان الشغل الشاغل للعرب ، فكانت الرسالة المحمدية مجرد امتداد .

ويرى واشنجتون آرفنج آن « بعض ما جاء في القرآن سبق أن جاء في التوراة والإنجيل ، وخاصة الآيات التي تتعلق بالملائكة والأنبياء والجن والأخيار والأشرار »[2] ملوّحاً ثم مصرّحاً بالاستفادة من العهد القديم .

وكأن الجهالة قد أدت به إلى عدم تصور الدين حقيقة ، فهل يعقل أن يقتصر ذكر التوحيد وقضاياه على التوراة والإنجيل ، أليس يعرف هذا أن الدين واحد ومن الطبيعي أن تتكرر قضايا التوحيد وأحداث الأنبياء فالدعوة واحدة .

وقال بروكلمان متجاوزاً ما يردِّده غيره من تشابه الأخبار : « فنظام الصلاة الذي كان فريضتين في اليوم ، ثم تطور إلى ثلاث فرائض كان متأثراً بالفكر اليهودي ، ولكن النبي ﷺ لم يبقه على ما هو عليه خوفاً من الاتهام ، بل أضاف إليه فريضتين ، فأصبح خمس صلوات في اليوم الواحد ، وكان متأثراً بالطقوس الفارسية »[3] .

ولم يأت بدليل على هذه الروح الصهيونية التي امتزجت بعبادة النار الفارسية ، وكأن عبدة النار كانت لهم أوقات عبادة مخصوصة ، ويرى فالح مهدي أن النار التي وعد بها محمد ـ هكذا ـ لا تتفق مع أخلاقياته وسمو فكره[4] .

---

(١) انظر مدخل إلى القرآن ، د . دراز ، ص/١٢٩ـ ١٣٠ .
(٢) حياة محمد ، واشنجتون آرفنج ، ص/ ٧٠ وغيرها .
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان ص/٣٨ـ ٣٩ .
(٤) البحث عن المنقذ ، فالح مهدي ، /١٨٧ .

إن هذا تفوح منه رائحة الانبطاح أمام العدو ، وهل كان ينتظر أن تُغفر ذنوب الكفرة ، ثم يرى أن الجنة في المسيحية أكثر روحانية ، وكأنه إله آخر ، هنا يترفع وهناك يسفل ، إن هذا المظهر من الكفر لم يخطر ببال أساطين الكفر الذين نقل عنهم .

ولا يريد أن يفهم هؤلاء أن معظم القرآن ومعظم القصص قد نزل في مكة بعيداً عن أهل الكتاب الذين يجزمون بأنهم المعلمون ، إنما الذي قال به معاصرو الوحي من الكفرة أنه استفاد من قَيْن حداد يصلح السيوف بمكة وكان رومياً لا ينطق العربية ، وما بعد هذا من ضعف في الحجة فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النمل : ١٠٣] ، إذا كان لا يتكلم العربية فمن أين له العلو البياني والتفوق القرآني ؟!

والصحيح أن العربي قبل الإسلام لم يكن يعنيه من الدين إلا هذا اللقاء اللاهي بالأصنام وموسم الحج ، من بقايا الديانة الإبراهيمية ، وليس لديهم اطلاع على الديانات السابقة ، وقد اعترف زيد بن عمرو بن نفيل الذي توفي قبيل البعثة بأنه كان يجهل عبادة الله وهو من الموحدين .

إن العربي كان يُعنى بالمشاهدات ولا يرهق دماغه بالغيب ، ويغلب على حياته حقل دلالي متكرر : الغزو ، النساء ، الخمر ، فإذا تطلعوا إلى أمم أخرى تطلعوا إلى ما يدعم حياتهم الحسية ، فاهتموا بأخبار الفرس وأبطالهم ، ولهذا كان النضر بن الحارث يحاول رد الناس عن الإسلام بقصص عن الفرس لا عن الأنبياء ، فقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان : ٦] .

فمشاغل العربي بعيدة عن الجانب الديني والتثقف به ، فلا يتحرك إليه ولا يضيع وقته ، سواء كان من الموحدين الإبراهيميين الذين

كانوا أفراداً مطمورين أو كان من المشركين[1] .

كذلك نجد أن شواغل الرسول ﷺ قبل بعثته كانت معروفة إما في الفلاء يرعى الأغنام ، وإما في التجارة مسافراً مع القوافل ، وإما في المجتمع العام مع رؤساء القبائل . . وإذا كان هذا المصدر صالحاً بالفعل للأخذ عنه ، ألم يكن طبيعياً وفي متناول معارضيه أن يلجؤوا إليه ، ويطمحوا به طموح محمد ﷺ[2] .

إن من المخجل والمؤسف أن يتعرض مستشرق لآراء سابقيه من أبناء جلدته وعقيدته ، فيتناولها بالنقد ، في الوقت الذي يصرّ فيه أبناء جلدتنا على التضعضع أمام الأسماء الغربية وسمومها ، فقد مال بعضهم في الفترة الأخيرة إلى الإنصاف بعد الجور والهوى .

يقول هوارت في كتابه « مصدر جديد للقرآن » بعد سرد الأخبار والمطاعن : « مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد ، قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسورية ، فإنه يتحتم استبعادها نظراً لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة »[3] .

وكتب تايلور في المسيحية القديمة نافياً إمكان الإفادة من الديانة المسيحية المنحسرة ، فقال : « إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه ، لم يكن إلا خرافات منفردة ، ووثنية منحطة ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوساً منحلة وصبيانية ، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة ، بأنهم رسل من قبل الله ، مكلفين بإصلاح ما ألمّ بالعالم من فساد »[4] .

---

(١) السيرة ، ابن هشام : ١/ ١٤٤ ، وراجع الإسلام ، الأب هنري لامانس ، ص/ ٢٨ .
(٢) مدخل إلى القرآن ، د . دراز ، ص/ ١٣٤ـ ١٣٥ .
(٣) مدخل إلى القرآن د . دراز ، ص/ ١٣٨ .
(٤) إتقان البرهان ، د . فضل حسن عباس : ١/ ٨٣ .

وثمة شبهات أخرى[1] ، تثير العجب والضحك ، منها بحسب عبقرية مونتغمري واط الحاقد في كتابه « محمد في مكة » أنه كان يستحضر الوحي بوساطة التنويم المغناطيسي الذاتي إن صح تعبيرهم ، أو بوساطة الخيال والوحي النفسي أو بوساطة مرض الصرع ونوباته مما حكاه الكاتب البيزنطي روفانيس قديماً ، ثم اشتهرت هذه الفرية الخبيثة عند نولدكه ، الذي كان تقليدياً ، وقد كان ردّ على زعمه كثير من المستشرقين مثل واط وديورانت وروم لاندو .

وكل هذه الشبهات التي تريد نفي ثبوت القرآن ومصدره الإلهي أتت ممن يدّعي العلمية الموضوعية مع وجود الانحراف اليهودي ، ولكنا لا نعدم من المستشرقين نظرات منصفة وأقوالاً مشرقة مشرفة يجب أن يعود إليها أهل الحداثة العربية وذلك حتى يتأكدوا أن كثيراً مما استوردوه صار ملغياً عند الغربيين الجدد ، وننصحهم بالمطالعة الواسعة في تراثنا بعد البرهان والإتقان .

كما ننصحهم بقراءة المنصفين ، من أمثال جان تورنون كرو الفرنسي (١٩٢٤) والمفكر الإنكليزي توماس كارليل صاحب كتاب الأبطال ، والأب هنري لامنز ، واليوغسلافي التربتسكين (١٩٠٧) صاحب « الحياة تبدأ بالأربعين » والقس الفرنسي لوازون في كتاب « الشرق » . والروسي ماكس مايرهوف (١٨٨٧) صاحب « العالم الإسلامي » ، والسويسري إدوار مونتيه (١٨٨٢) الذي كان مدير جامعة جنيف وأشهرهم الشاعر لامارتين في كتابه « رحلة إلى الشرق » .

---

(١) راجع وحي الله ، د . حسن ضياء الدين عتر ، ص/١٩٤ ، ٢٠٤ ، الرسول في الدراسات الاستشراقية ، ص/٣٩٥ـ ٣٩٦ ، تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان : ١/ ١٣٤ ، والإسلام دعوة عالمية ، العقاد ، ص/ ١١٠ .

وقد رصد الأستاذ محمد شريف الشيباني كثيراً من أقوالهم في مجالات شتى ، ويحسن أن نذكر هنا ما قاله هذا الغريب الغربي جوان واتنبرت في مؤلفه « محمد والقرآن » فلعلّ المتفاصحين عندنا يخجلون ، وإلا فيكفي أننا نقيم عليهم الحجة .

قال واتنبرت : « بقدر ما نرى صفة محمد الحقيقية بعين البصيرة والتروّي في المصادر التاريخية الصحيحة ، بقدر ما نرى من ضعف البرهان وسقوط الأدلة لتأييد أقوال الهجو الشديد والطعن القبيح الذي اندفن على رأسه ، وانهار عليه من أفواه المغرضن ، والذين جهلوا حقيقة محمد ومكانته ، ذلك الرجل العظيم عند كل من درس صفاته العظيمة ، كيف لا وقد جاء بشرع لا يسعنا أن نتهمه فيه »[1] .

* * *

(١) الرسول في الدراسات الاستشراقية ، ممد شريف الشيباني ، ص/ ٣٩٣ـ ٣٩٤ ،